مصطفى الكيلاني

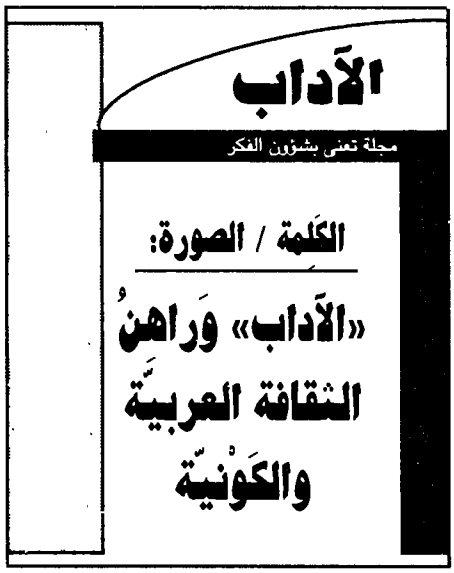

قد نتفق في تقدير الخسائر العُظْمى التي مني بها العربُ ونحن الآن على مشارف القرن الحادي والعشرين، من سياسيّة وعسكرية وترابيّة وغذائيّة كأن تُجمّع أغلب البذور وتُمَرْكَزُ في بلدان الشمال دعماً للاستهلاك وسيادة قوانينه السالفة والحادثة ... ولكنَ الخسائر الثقافيّة التي هي أنْكى الخسائر وأخطرها على وجودنا راهناً ومستقبلاً تظلّ محَلَّ جدل وعدم اتفاق، لأنَ الذي يحدث في الذهن لا ينكشف للعين الرائية وإنما هو مُحَصَّل برنامج استعباديّ جديد نُفِّذَ على مراحِل سِرّاً أو عَلناً، وعلى امتداد عقود، مروراً بالإنسان العربي الذي كافح من أجل التحرّر الوطني، إلى الفَرْد المُدَجَّن الخاضع في نمط عَيْشه لشروط السوق ونظام اقتصاده المحكوم حِسّاً ومعنى بِشَبَح آلة كونية عملاقة تُسَطِّرُ الآن برامج الإنسانية قاطبة وتُشَرّع سياسة مجتمع أرضيٍّ له سادته وعبيده، أثرياؤه وفقراؤه، عقولُهُ وآلاته الطيِّعة عبر مصارف وأنظمة وتكتّلات عسكرية وأجهزة مخابراتية.

إن الفرديّة التي تأسّست عليها حضارة الغرب أمستْ بعد سياسة التكنوقراطيّين في العقود الماضية وسياسة البراغماتيّين السائدة في الأعوام الأخيرة شِعَاراً لإخفاء تفاصيل الجريمة الكونيّة. فهل يحقّ للغرب اليوم أن يتكلّم عن حريّة الفرد وحقوق الإنسان والتسوية بين الشعوب، وما حدَث ويحدث في مناطق مختلفة من العالم ليس إلاّ قَتْلاً متكرّراً للإنسان وارتداداً إلى ما قبل عصر التنوير بأشكال مختلفة؟ وهل يحقّ لنا أن نُنَظِّر لمستقبل الفرديّة العربيّة، والفردُ الذي من خلاله نحاول أن نفكّر (أو بِهِ ومن أجله نفكّر) مشروعٌ تاريخيّ تداولتْ عليه مناوراتُ التدجين والحصار فأمسى ظلاً لحياةٍ ناشئة سرعان ما أفضت بها مطبّاتُ الحكم المطلق ونظام السوق الكونيّ بِنظام مراقبته الدائمة إلى التراجع المذهل؟ فهل يمتلك الإنسان العربيّ في الدائرتيْن القوميّة والكونيّة كاملَ قواه الجسديّة، حواسُّه، عقلَه، ذوقَه، مِخيالَه...؟ ماذا يُنْتِجُ وماذا يستهلك؟ وكيف يستهلك؟ وكيف تُدَجَّنُ حواسُّه على وجه الخصوص؟ إنّ الاستعباد الذي تعرّض له ضمن برنامج تدجين الفرد - الإنسان كَوْنِيّاً استِعْبادٌ اقتصاديّ بدرجةٍ أولى، استعبادُ اقتصادِ السوق الذي أدرك تِجاريّاً أهميّة الحواسِّ في تنمية ذوقٍ ما وإنشاء نَمَط تفكير ما والتحريض على سلوك ما. فالعين هيَ المستهْدَفة الأولى، إذْ بتدجينها تقيّدت مختلفُ الحواسّ الأخرى، وبإحكام تدجينها لم يبقَ لليد والأنف والأذن واللسان إلاّ الانتظامُ دَاخل نسيج عامّ يتوسّطه دماغٌ طَيّعٌ خَدُومٌ.

فما حكاية العين هذه؟ وكيف يتداعى حِصْنُها لتَنْهَدَّ كُلُّ القلاع «بعملية جراحيّة» دقيقة محكمَة تستأصل وَرَم العصيان والرفض وتنتقل بالإنسان نِهائيّاً من أسطورة الموت ومغالبة الفناء بالعمل والحبّ والحلم إلى موت الأسطورة والتّاريخ معاً لتركيز أسطورة الآلة والقوّة وفراغ الكينونة؟

لِنَخْتَصِرْ وجودنا الفرديّ في بحر يوم واحدٍ، أي في عَدَدٍ من السّاعات: منذ الاستفاقة الصباحيّة حتّى العودة لَيْلاً إلى الفراش، في ذلك الشريط من السِلع المعروضة في الواجهات البلوّريّة، ومعلّقات الإشهار الحائطيّة، وملابس عديدِ المارّة في الشوارع والسّاحات، وما يُكْتَبُ على الصدور والظهور، وما يُرْسَمُ بشتّى الألوان، وفي التلفاز، هذا الجهاز العجيبَ الذي اكتسح جميعَ البيوت وأخضع الرؤية لنظام الاصْطفاف الجمعيّ كأنْ يُشدَّ أفرادُ الأسرة إلى ركنٍ مُحَدَّدٍ في البيت وتُمْنَع الأحاديثُ الجانبيّة ولا اختلاف إلاّ في اختيار القناة والبرنامج الأفضل؛ وفي ذلك تعدّدٌ داخل الواحد الّذي هو الصورةُ واتّفاقٌ ضِمنيٌّ من أجْلِهَا.. فتتكرّر المشاهِدُ، تتراكمُ، تتداخل، تنفذ تأثيراتها إلى قيعان الدماغ، تنتشر في كامل خلايا الذهن وتُمسي الحواسُّ الأخرى خاضعةً هي أيضاً لإغراءات السحر الكامن في الصورة ودبيب الشهوة كلّما تثنّى جسدٌ حسناء في سيولة الظلال والأضواء المُصَنَّعَة داخل العُلَب الجميلة الآسِرة...

هل هو التحوّل النهائيّ من ثقافة الأُذُن في مستوى أوّل دون الانفصال عن العين، إلى ثقافة العين المُدَجّنَة المتسلّطة على غيرها من الحواسّ؟ وهل ما تخضع له العين راهناً من

أحكام يمثّل وَجْهاً لثقافة جديدة انطلقتْ بالصورة السينمائية ثمّ التلفزيّة وترسّخت بالإعلاميّة وتطوُّر أجهزتها؟ وما مُسْتقبل هذه الثقافة في غَمْرَة الثورة التكنولوجية المتواصِلة؟

إنْ حلّتْ سلطةُ المرئيّ في بلدان الشمال مَحَلّ سلطة الخطيب السياسيّ الذي كان يشدّ إليه بواسطة المِذْياع أفئدةَ الملايين، فإنّ المرئيّ اليوم في بلدان الجنوب جزءٌ من السياسيّ الخُطَبيّ يطفو على السطح في عديد المناسبات لِمزيد إحكام نظام الطاعة: فيظهر «الزعيم» في الأعياد الوطنيّة والدينيّة وفي الأوراق النقديّة وفي المعلّقات الجداريّة قريباً من الإعلانات الإشهاريّة أو يكون في خدمتها وتكون في خدمته داخل نظام دِعائيّ إيديولوجيّ واحد مشترك. فتتكثّفُ بذلك سلطةُ المرئيّ بتوظيف خاصّ يُرْجِعُ المتعدّدَ إلى الواحد، وتكون الصّورة بمختلف أشكالها وقنواتها في خدمة الدولة الواحديّة تحت غطاء ملكيّ أو جمهوريّ عسكريّ أو بوليسيّ أو عسكريّ بوليسيّ في اللّحظة ذاتها دون الانفصال عن اختيارات النظام الاقتصادي العالميّ..

ولأنّ نظام السوق يستلزم راهناً التعدُّدَ القائمَ على التنافس المراقَب بتكتّلات اقتصاديّة عُظْمَى كأسواق أمريكا وأوروبا وآسيا وبأجْهزة حَرْفية ومخابراتيّة كونيّة والمدعوم بآلة عسكريّة هي الأقوى عَتاداً والأكثر تطوُّراً تكنولوجيّاً في العالم... فإنّ الأنظمة السياسيّة داخل بلدان الجنوب المغرَقة في الكلّيانيّة لم تعد تستجيب لبرامج اقتصاد السوق الراهنة والمستقبليّة. لذلك ترفض قياداتُ الشمال المالكةُ للنفوذ السياسيّ والاقتصاديّ والعسكريّ سياسةَ الصوت الواحد الصريحة، وتخشى في الآن ذاته من الديمقراطيات الشعبيّة، ونَرَاها تدعم «ديمقراطية» الواجهة في الظهور والانتشار، وتدعم سياسةَ التعدُّد المغشوش لامتصاص غضب الجماهير وتمديد الأزمات وإرجاءِ حركاتِ الانفجار وتدجينِ القوى الرافضة واستخدام شتّى الوسائل لوقْف أيّ فكر ناشئ جديد يُحاول خَلْخَلَةَ السائد...

كان نظامُ المراقبة الكونيّ إلى الثمانينات من هذا القرن ينحصر في التوازُنات الاستراتيجيّة داخل منظومة الصراع بين القوّتيْن العظْميين في العالم، ويسمَحُ لِجهاز الحُكْم داخل بلدٍ ما في خارطة الجنوب بهامش كبير للتصرّف، كَمَا يسْمَحُ هذا الجهاز الحاكم للمثقّف داخل البلد بهامش من الحريّة ضِمْن صراع مشكوف – تقريباً – بين الدفاع عن مصلحة الدولة والكفاحِ من أجل الحريّة والاختلاف. ولكنّ الحاكم اليوم في بلدان الجنوب أمسى شُرطيّاً داخل جهاز أمنيّ عالميّ. وإذَا كان سَادَةُ العالم بالأمس يغضّون الطّرْف عن عديد الانقلابات العسكرية فإنّهم اليومَ يرفضون أيّ وجه للانقلاب تمسُّكاً بالاستقرار الذي أرسوا قواعده في تأسيس مجتمع كونيّ له مركزه وتكتّلاته وخارطته الجغرافية السياسيّة الجديدة التي تستجيب لقوانين ما سُمّي بـ«النظام العالميّ الجديد» الذائعة والمستورة. ولم يعد للمثقّف داخل بلدان الجنوب ما كان له من هامش حريّة قبل ظهور «النظام الكونيّ الجديد»، بل تضاءل ذلك الهامش في غمرة حياة السوق وسيادة نظام المراقبة والإعلام.

إنّ العين في زحمة التغيّرات الكونيّة العاجلة هي المستهدَفة الأولى في برنامج تدجين الإنسان/ الفرد، والإنسان/ المجموعة على حَدٍّ سواء.. ذلك أنّها مجال كثافة القوّة الجسديّة حيث طاقات النفس تتجمّع في اتّجاه واحد؛ وهي أداة الوصل بين الذات والعالم الخارجيّ؛ وبها يكون التعاقُد الصامتُ المستمرّ بين التاجر والمستهلك، بين السلعة كَمَا تُعْرَض وبين رغبة الاستهلاك. ولذلك حلّتْ جماليّةُ الصورة مَحَلّ جماليّة الكلمة، بل إنّ الكلمة أمستْ جزءاً من علاميّة الصورة؛ فتتراجع بذلك سلطةُ الكتاب ويتناقص عددُ القُرّاء في المجال الكوني بِمَا في ذلك السلاسلُ البوليسيّة التي كان يُقبل عليها الجمهورُ الغفير والأفلامُ المُصَوَّرَة الحِوَاريّة، ويتحرّك العقلُ داخل مُسْبَق التسليم بالحاجة الدائمة إلى الرؤية البصريّة بإرادة الآخر الذي يخطّط للإعلام والصورة مَعاً ضمن سياسة اقتصاديّة لها حضورُها القطريُّ والإقليميّ وانتشارُها العامُّ الكونيّ.

إلاّ أنّ اللافت للانتباه عند استقراء هذا العصر الناشئ، الذي أسميناه عصرَ الصورة، هو سرعة الحركة وتوسُّع الانتشار من الشاشة الكبيرة إلى الشاشة الصغيرة التي اكتسحت كلّ البيوت في بحر أعوام قليلة وكان من نتائجها المباشرة العاجلة تراجُع نفوذ السينما بصفة تراجيديّة في وصف عديد النقّاد والمخرجين. فلم تعد الصورةُ فحسب فنّاً قائماً بذاته، يؤثّر ويتأثّر بالفنون الأخرى، بل إنّ المؤسّسة السياسية والإعلامية – كما أسلفنا – استقطبت نفوذ الصورة وحوّلتها من مدار الفنّ الخالص إلى الأداة الإيديولوجيّة والإعلاميّة والدعائية والإشهاريّة مَعاً. وانحصر نفوذُ الكلمة في أوساط المتعلّمين والمثقّفين، بل في صنفٍ من هؤلاء ممّن اختاروا الكلمة أسلوباً للتعبير ومخاطبة الآخر. وعلى هذه الوتيرة تداخلت الوقائع الكونيّةُ والقوميّة والوطنيّة بمفهومها القطريّ الذي ازداد تَرسُّخاً في الأعوام الأخيرة ضِمْن مشهد ثقافيّ عامّ لم يعد للكلمة فيه مركزُ الريادة، وازداد المثقّفُ خلاَلَهُ عزلةً وتهميشاً.

فكيف بإمكان مجلة **الآداب** اليوم أن تواصل الاضطلاع بمشروعها الحداثيّ القوميّ الذي أعلنت الالتزامَ بنهجه العامّ منذ أوّل عَدَدٍ لَهَا على لسان مؤسِّسِها وصاحبها الدكتور سهيل إدريس؟ كيف نضمن لها الانتشار الدائمَ في كافّة الأقطار العربيّة من غير التخلّي عن مبادئها الكبرى؟ كيف تضمن انفتاحَها الدائمَ على مختلف الأجيال والآراء ضِمْن منابر تطرح قضايا الأدب والفكر الراهنة والمستقبليّة؟ كيف يُمكنها أن تغالب الظروفَ الصعبةَ التي تمرّ بها ثقافةُ الكلمة؟ كيف تقدر على التفاعل الإيجابيّ مع ثقافة الصُّورة؟ كيف تتحرّك داخلَ مجالاتِ القمع المتزايد في واقع المثقّف والثقافة العربيّة؟

أسئلةٌ عديدة ارتأيتُ إثارَتها في هذا القول الموجز، ولعلّها تستقدم آراء نحن اليوم في أمسّ الحاجة إلى قراءتها.. فَلْنخْرُج مَعاً من أقبية الصمت إلى صخب الكلمة!

تونس